١ - فصول في الأدب والنقد

للدكتور طه حسين بك

٢ - الفاروق عمر

للدكتور هيكل باشا

— ١ —

لعل في الكشف عن بيان الفرق بين الأدب النقدي ؛ والنقد الأدبي تصويراً لمذهب الدكتور فيما يعرض له من الدراسات الأدبية والنقد الفني ؛ فالأدب النقدي نستطيع تعريفه بأن قوامه الفن الأدبي ثم يتخلص الحين بعد الحين ليوجه النظر إلى ما يستثير الإعجاب أو ينبه في رفق ولين إلى مالا يجمل أن يكون ؛ فالقارىء في صحبته مستغرق فيما يفيضه الأدب من صور جذابة وإن استوقفه كلما اطرد بهما السير ليمعنا الفكر فيما تنطوي عليه تلك الآيات . أما النقد الأدبي فلا تعدو دائرة الصواب إذا قلت إن عماده الدرس والتحليل والتشريح ؛ وإن كان أريج الفن ينشر شذاه ملطفا هذا الجو الذي هو أقرب ما يكون إلى الجو العلمي الثقيل الصارم ؛ ولكنك مع الدكتور أبعد ما تكون عن هذا الجو الذي يبث السأم في النفس ؛ ويسلط العناء على الذهن ؛ ويجعلك تتشوق دائما إلى الخلاص من هذا الجهد المضني الذي يثقل عليك إذا طال بك العهد في جواره فهو يجيد كيف يسري عن القارىء ؛ ويذود عنه أشباح الملل ؛ ويذهله عن نفسه بما يسوق بين يديه من الصور الهادئة الطبيعية الجميلة ؛ فأنت معه — في الأدب الجاهلي — لست في صحراء موحشة ما تكاد تلم بها حتى تتلفت متطلعاً إلى الفرار منها : ولست محتاجا إلى تسليط إرادتك على عواطفك حتى يتسنى لك قطعها ؛ وإطراح أثقالها وأنت متبرم بها ساخط عليها ، بل أنت معها في مكان موفق أشبه ما يكون بأحد الملاعب ، أو دور الصور المتحركة تجلس هادئاً مستريحا جذلانا ؛ ثم تأخذ الصور تتهادى أمام ناظرك وكلها متعة ؛ وكلها ترويح ؛ فكل ما تصبو اليه أن تطول هذه الأوقات لتأخذ من هذا المتاع الروحي بحظ وافر ؛ فلا تكاد تتقدم معه في القراءة حتى تشعر بالحاجة إلى المعاودة لاستبقاء اللذة واطراد المتاع ؛ لأنه تمكن من النجاح في الاستتار بالحواس وتقديم النظريات العلمية مغلفة وموشاة بأزاهير البيان فلا ينفر منها الحس ، ولا تنبو عنها المشاعر ، بل تنساب في هذه النواحي سهلة لينة ، هذا هو سر الكلف بأدب الدكتور وتعلق القلوب به ، حتى ذهب بعض النقاد إلى القول بأن أبحاث الدكتور الأدبية ستخلد ببيانها وعرضها وأسلوبها كما تخلد بنظرياتها وأنت في حل من أن تماري فيما يضمه هذا الكتاب أو ذاك من آراء لا تطمئن اليها أو تذهب إزاءها مذهبا آخر ؛ ولكن الذي ليس فيه مراء أنك مع هذه الابحاث في جو فني بديع ؛ على هذا الأسلوب يتناول الدكتور أبحاثه ودراساته الأدبية ، فقد يذهب بك إلى « المتنبي » أو « أبي العلاء » أو « الأدباء المعاصرين » فتجد خير من يؤنس ويقدم ويدير الحديث ؛ ويرفع الحجب بينك وبينهم ؛ ويضع يدك في لباقة على مواضع ضعفهم ؛ وجوانب مآخذهم ؛ ولم يلبث أن يصوب اتجاهك إلى مبعث خلودهم ؛ ومصادر عبقرياتهم ؛ كل ذلك بهذه الطلاوة وهذا الجمال وهذه الأريحية ؛ وكل هذه الخصائص نجدها بارزة واضحة في هذه الفصول التي نشرها الدكتور حديثا في الأدب والنقد ؛ وهي إن امتازت بشيء فهي تمتاز بأنها لم تقدم لنا شخصيات من العصر الجاهلي ؛ أو الأموي ؛ أو العباسي ؛ مما يفصل بيننا وبينهم كثير من العادات والأذواق والنظرة إلى الحياة ، بل تقدم إلى الشباب الذي يأخذ نفسه بالدراسات الأدبية شيوخه في الأدب ؛ ومن هم في الطليعة ومن يحملون المشاعل لهدايته. ومن ذا الذي لا يحتاج من الشباب إلى أن يكون علمه عن شيوخه أتم وبصره بمذاهب تفكيرهم وشيات انتاجهم أوفى ؛ حتى يستطيع أن يتمثل كل ما يصدر عنهم تمثيلا صحيحاً لأنه يتركز على دعائم من الدراسة التي تبرز طبائع كل منهم ؛ ففي هذه الفصول تستطيع أن تقف على كثير مما كان يستتر عن فهمك مما يتعلق بهؤلاء الشيوخ . فأنت ستعرف كثيرا عن أمثال الاستاذ — أحمد أمين بك — وأدبه في رأي الدكتور ، وستعرف عن الاستاذ — العقاد — والأستاذ — أبي حديد — وغيرهم ممن يكيفون النهضة الأدبية في الشرق ؛ وتقف على اتجاهاتهم الفكرية وخصائص أقلامهم ، كل هذا تظفر به من غير أن يشعرك الدكتور أنه سيعرض عليك شيئاً من هذا بل هو يجعل من — فيض

الخاطر — مثلا — لأحمد أمين بك — سبباً للكتابة يعرج بك من هذا الجانب مرة ؛ وذاك أخرى ؛ ويرسم لك هذه الصورة ويدع لك هذا اللون وإذا بشخصية صديقه لايند منها شيء ولا يخفى عليك منها خافية ؛ ويسير على هذا النهج مع كل من عرض لهم فى هذه الأحاديث ؛ والكتاب ممتع فى أسلوبه ؛ شيق فى عرضه ؛ خليق بالقراءة والدرس لأنه يقرب بعد الشقة التى تفصل شباب الأدب وشيوخه وتعطى لك صورة عن مذاهبهم الفنية ؛ وإن حمدنا شيئاً فانما نحمد رجوع الدكتور إلى ميدانه بعد أن طالت غيبته ؛ وتشوفت القلوب إلى طلعته .

— ٢ —

العصور الإسلامية أحوج ما تكون إلى البحث والصقل والربط بين أجزائها وترتيب المقدمات الصحيحة التى أفضت إلى هذه النتائج ؛ لأن هذه العصور لا تزال مطموسة المعالم ؛ حائلة الصورة ؛ مفككة الأجزاء ؛ ينقصها رفع الأغشية عن اطرادها المنطق لسير حوادثها ؛ وحركات تطورها ؛ فتاريخنا لم ينل من العناية والدقة مايحفظ عليه ملامحه ؛ ويحدد كينونته ؛ وتأخذه العين كائناً ؛ حياً ؛ له خصائصه وشياته ؛ بل تجده أجزاء متفرقة ؛ لا ينظمها تسلسل منطق ؛ ولا تربطها وحدة ؛ وما أشبه تاريخنا بحومة وغى ؛ انكشف تلاحمها عن أشلاء قد كدس واختلط بعضها ببعض . فعلى من يريد أن يرد إلى كل جسم بقاياه ؛ أن يعمد إلى متناثره من هنا وهناك ؛ حتى يستطيع أن يسوى منه مخلوقا ؛ هكذا انتثرت مهايا العصور الإسلامية ومهايا رجالها فى هذا الحشد المزدحم من هذه الأخبار المتضاربة أحياناً التى ينقصها فى كثير من المواضع طابع الاتزان ؛ نجد فى هذا المكان لمحة عن هذه الشخصية أو العصر ربما أتت عرضاً ؛ وفى ذاك صورة يمكن بعد نفض الغبار عنها أن تكون مادة قوية فى رسم لوحة من لوحات هذا العصر أو ذاك ؛ فرسالة المؤرخ لهذه الحقب أن يطيل النظر كثيراً مع استعانته بكل ما من شأنه أن يعينه على جمع الأشباه إلى الأشباه ؛ والنظائر إلى النظائر ؛ وإقامة حياة من ذلك الشتيت المتناثر ؛ ثم يعمد إلى سد الفجوات فى هذا البناء ؛ وتنسيق الحوادث تنسيقاً منطقياً ؛ حتى يبدو عليه وقار الحياة ؛ وجلال الدرس القيم ؛ ثم يلقى الأضواء دائماً على الجوانب التى يكتنفها شيء من الظلام ؛ ويجلو الآفاق التى يخيم على تألقها الضباب ؛ هنا يصبح التاريخ وهو قطعة حية من صميم الحياة المطردة والوجود المتماسك ؛ والدكتور هيكل باشا أول من حاول هذه المحاولة فى كتابة التاريخ الإسلامى على هذا الأسلوب العلمى الدقيق ؛ فقد كان صاحب اليد فى تجلية العصر النبوى ؛ وإماطة اللثام عن كثير من جوانبه ؛ وتوجيه الأنظار إلى مشرق النور ؛ ومصدر السمو البشرى ؛ ومنزل الوحى ؛ وتقديمها لأول مرة فى هذا الثوب الجديد ؛ وقد استطاع أن يعطينا صورة من هذه الفترة التى لونت حياة العالم الإنسانى إلى حد كبير بلونها المتألق الجميل ؛ أقرب ما تكون إلى الدقة العلمية فى البحث والتحليل ؛ والجمال الفنى فى العرض ؛ والتصوير ؛ وها هو ذا اليوم يهدى إلى الأدب ؛ والعلم ؛ والتاريخ ؛ شخصية من أضخم الشخصيات العالمية ؛ وهى شخصية — الفاروق عمر — والعالم كله يجتاز هذه المرحلة وهو أشد ما يكون احتياجا إلى الأخلاق ؛ والشجاعة ؛ والعدل ؛ والعطف ؛ والمساواة ؛ والأخذ على يدى الطاغى مهما كانت مظاهر سطوته ؛ التى سنها عمر فى سياسته وضربها مثلا فى معاملته ؛ وهذا الكتاب الجديد يحمل طابع المؤلف فى كتابيه السابقين — حياة محمد — والصديق أبو بكر — من حيث الدأب فى الحصول على كل ما يتعلق بهذه الفترة ؛ وتلك الشخصية فى كل ما تفرق من المصادر العربية ؛ وما يتصل بها من البحوث الغربية التى قام بها المستشرقون — وإعمال الفكر ؛ ودراستها دراسة تحليلية ؛ ومناقشة كل ما يستحق المناقشة على الطريقة العلمية ؛ ثم يترك قلمه يصوغها صياغة فنية خلابة ؛ فكتابة الدكتور — هيكل باشا — تحمل دقة المنطق ؛ وطلاوة الأدب ؛ ومن هنا كانت قيمتها لأنها تشوق القارىء إلى اقتحام فيافى التاريخ الشاقة ؛ وتعين الباحث المختص على تقديم مادة قوية فى هذا المجال ويرسم النهج الذى يجب أن يحتذيه من ينهض بعبء هذه الرسالة ، ولا ريب أننا نعوزنا هذه الأبحاث ؛ وهذه الدراسات فى تاريخنا الإسلامى وتقديمه للشباب فى هذه الأساليب العلمية والحالات الفنية ؛ حتى يتهيأ لنا أن نوقد الرغبة فى قلوب الشباب ونثير الشوق إلى هذا التاريخ حتى يتسنى له أن يأخذ حظه من العناية والدرس بين الحضارات الأخرى ؛ ومن هنا كان أهمية هذا المؤلف القيم عن هذه العبقرية الخالدة . . .

والذى نأمله ألا يلبث القارىء طويلا حتى يظفر بين يديه بشخصية جديدة من شخصيات هذا التاريخ .

محمد عبد الحليم ابو زيد